ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثَتْ سيدنا رسول الله فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٣٠١ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يأيها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذْكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجَّه فـى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثَتْ رسـول الله فى أمر النسـاء ، وأن منهن مـثل الرجال مسـلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسـلام ، ثم الإيمان ، فأيّهمـا يسبق الآخر ؟ ونـجد إجـابة هذا السؤال فى قـول الحق سبـحانه وتعـالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمـان أو عن غيـر إيمان ؟ لأن الإسـلام تلقّى حكم ، أما الإيمـان فأنْ تؤمن بمَنْ حكم ، وتُصـدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فـالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتـفضح هؤلاء الأعراب الذين تسـتروا وراء الأعمال الظاهرة للإسـلام ، وهم غير مؤمنين بهـا ، وقد يأتى الإيمان بعـد الإسلام حـين تؤدى أعـمال الإسـلام فتـحلُو لك ، وتجـذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لـقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقـول : لَمَّا يثمر بستـاننا ، وقد أثمرتْ البسـاتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كـثيراً من الأحكام أنت لا تؤمـن بالذى حكم بها إلا إذا أدركتَ وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جـاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيـفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسى ، فردَّ الباب فى وجهه ، فعاتبه ربه فى ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أسعُه طوال عمره وهو كافر بى ؟ فأسرع إبراهيم فى إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرنى منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبنى ربى فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربَّ ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس فى هذه الصفات العَشْر التى جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهى برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفى مطمور فى باطن الرجل ، وهذه هى الأصول .

ومعنى ﴿ والْقَانِتِين .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته فى خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿ والْمُتَصدِّقِين والْمُتصدِّقَات .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف فى مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره . فلا ولايةَ عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن الزكاة ، وهذه من ميْزات المرأة فى الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى فى الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ والْعَامِلِين عَلَيْهَا .. (٦٠) ﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك فى أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه[1] .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[2] يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع . فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤١٤) وصححه . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/ ٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً في شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتي مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس في الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك في الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن في الصلاة ، وكذلك في الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم لهَ إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به »[1] يعني : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذي تحمَّل التكليف ألِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة في نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأت على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذي يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن : هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك في غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَيْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثِّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكاليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى فى ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ . والحافظات فروجهن : لأن أمر النساء ينبغى أنْ يُسْتر وأنْ يُصَان .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى فى قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة فى الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعى البعض . ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معى أهلى أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٥٢) . قال الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم فى استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابةً عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنىٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »(1) .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عالٍ لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس] فهو

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

وحده القادر على أنْ يجازينى بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر فى الحجم ، ونَفَاسة فى الصفات ، وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشىء ، وأىُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث فى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فهى امتداد للآية السابقة ، فهى تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ فى عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهى لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرِق من أهله ، وبِيع فى سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة . فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٨٩) ، والسيوطى فى « أسباب النزول » . (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلىً لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإنِ اختاركم فهنيئاً لكم ، وإنِ اختارنى ، فَمَا كان لى أنْ أُسْلِمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد [(١)] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ..**
(٤)﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتَبنَّى رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنِّى من المتبنَّى بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يَشْمتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..۝ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ۝ ﴾ [الأحزاب] فَخُلِّدَ زيد فى كتاب يُتْلى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفى أخيها عبد الله[1] .

ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] معنى (ما كـان) أى : أنه شىء بعيـد ، لا يمكن أنْ يَرد على العـقل ، أى : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشـر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِـيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحـزاب] وإلا فـلا إيمـانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيـف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقـول : هناك فرق بين اختـيار داخل فى التكليف ، إنْ شـئْتَ فعلْته أو لم تـفعله ، وشىء فى إيجاد التكليف بداية ، فليس للعباد دخْل فى إيجاد الشىء المكلَّف به ، إنمـا إذا كلَّفـتـهـم أنا ، فـأنا صـاحب التكليف ، وكـونـهم يطيـعـونه أو لا يطيعونه ، فـهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقـترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لى ، ولـهم الاختـيار فى طاعـتـه وفى قبـوله ، وما دام قـد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسـول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرِضوا عنه إلى غيره .

وقصـة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سـيدنا رسول الله ﷺ مـنها

---

(١) هو : عـبد الله بن جـحش بن رئاب الأسدى ، صـحابى ، قـديم الإسلام ، هاجـر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وكان من أمـراء السرايا ، وهو صـهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحـش أم المؤمنين ، قتل يـوم أحد شـهـيداً ، فدفـن هو والحمزة فى قـبر واحـد عام ٣ هجرية . [الأعلام للـزركلى ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطـلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هى أميمة بنت عبد المطلب .

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغى فى حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذى أبداه الله قوله تعالى ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهي تُوصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أىْ بُنية ، إنك لو تُركْتِ بلا نَصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنَّ خُلق الرجال ، وأنَّ النصيحة لو تركتْ لفضل أدب لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »(١) .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٨١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدى المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدى حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهى على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رَحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر في أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف . وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهي الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذي منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب ـ لكن الناس لم يُحسنُوا الظن .

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صِرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شىء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ** .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ** .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها ، فأخذ يجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب . عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج . ثم عاد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا ، وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) ، وتفسير ابن كثير (٣/٥٠٣) .

حجة ، وطبيعى أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار ؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبرىء عِرْضه وساحته ، مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله : « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا : نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] .

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أىَّ شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حيائه ﷺ من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فلما دخل ﷺ مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبى السرح ؛ لأنه نال كثيراً من رسول الله[2] ، فجاء عثمان بن عفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فما ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله ، لكن عثمان أعادها مراراً على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) . وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أسلم قديماً وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٠٢/٩] .

رسول الله حتى أنه استحى من عثمان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعني : قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل[1] كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله - انظر إلى العظمة « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين »[2] .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم ، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي ، فناداني بها فتقدَّمت إليه ، فضربني على قفاي ضربة انحلَّتْ معها القضية التي كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتأنيب . وقال ابن منظور في [لسان العرب - مادة : عذل] : « قولهم في المثل : سبق السيف العذَل ، يُضرب لما قد فات . وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسائي في سننه (٧/١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . ولفظ أبي داود والنسائي : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فقلت لرسول الله ﷺ - ولم يقل : أنا رأيتُ رسول الله - ما الذى جعلك تقبل شفاعة عثمان ؟ فقال : ألاَ أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيدات : قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضى ، ثم المفعول المطلَق ضلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه ، ثم يأتى مَنْ يفتح عليه ويدلُّه ، أما هذا الذى يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة ، وليس هناك شيء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله ﷺ مع عثمان وعباد بن بشر أوضحتْ صفة الحياء فى رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التى جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالها رسول الله ﷺ عن عثمان رضى الله عنه فى مناسبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث . ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : ألا تستحى من رجل تستحى منه الملائكة .